تيمة الشّفاعة في نبويّات المغاربة - الأخضر بن خلوف نموذجا-

د. أحمد قيطون
جامعة ورقلة.

يـــا محمد بيك راني شايع في بلاد التل والمدون والصحار
بما كتب لي الإله قانـــع عسى وعل يمحي لـــــي وزاري
الأخضر بن خلوف

شعر النّبويّات هو ذلك الشّعر الّذي ينصبّ على مدح النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، بتعداد صفاته الخلقيّة والأخلاقيّة، وإظهارالشّوق لرؤيته وزيارة قبره والأماكن المقدّسة الّتي ترتبط بحياة الرّسول – كطيبة وسلع ورامة – وغيرها من البقاع الّتي كان لها حضورا في حياة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، مع ذكر معجزاته الماديّة والمعنويّة.

وقد شكّلت شخصيّة النّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم منذ الدّعوة الإسلاميّة محورا هامّا للشّعر العربيّ، أعرق الفنون العربيّة، وكانت شخصيّة الرّسول دائما موضوعا أساسيّا لأحد أهمّ الأنواع الشّعريّة العربيّة، وهو الشّعر الدّينيّ الّذي يتناول موضوعات مثل: الوحدانيّة والعشق الإلهيّ ومدح النّبيّ وآل بيته. وإذا كانت بدايات مديح النّبيّ تعود إلى أوائل سنوات الهجرة،

فإنّ هذا الفنّ تطوّر على يد عدد من الشّعراء على مرّ العصور الإسلاميّة، حتّى أصبح اليوم فنّا قائما بذاته له خصائصه وطرقه، وغدا المديح النّبويّ يشكّل أحد أهمّ الفنون في المجتمعات الإسلاميّة الحديثة.

فالشّاعر يحاول من خلال هذا الموضوع أن يبرز تقصيره في أداء الواجبات الدّينيّة والدّنيويّة؛ وذلك بالتّذكير بالعيوب والأخطاء والذّنوب الّتي وقع فيها، وبالتّالي يحاول أن يناجي الله طالبا منه التّوبة والمغفرة؛ لينتقل بعدها إلى الرّسول طالبا منه **الوساطة والشّفاعة** يوم القيامة.

هذا النّوع من الشّعر الّذي وُجِدَ مع وجود النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، إذ يعتبر حسّان بن ثابت وغيره من الشّعراء الصّحابة الّذين عايشوا الرّسول أوّل المادحين؛ ليتطوّر بعدها هذا الغرض على أيدي شعراء كثر من المشرق والمغرب، خاصّة الشّعراء المغاربة والأندلسيّين الّذين كان لهم باع طويل في المديح النّبويّ منذ الدّولة المرينيّة؛ إذ شكّلت لهم ظاهرة الاحتفال بالمولد النّبويّ الشّريف أساسا انطلقوا منه ليعبّروا عن شوقهم لرؤية النّبيّ، وزيارة المرابع الّتي وطأتها قدمه صلّى الله عليه وسلّم، مع إظهار الذّلّ والانكسار من خلال تعداد الذّنوب والمعاصي الّتي ارتكبوها، طالبين في الوقت نفسه الشّفاعة يوم القيامة.

وعليه فقد شكّلت **تيمة الشّفاعة** في نصوص المديح ظاهرة بارزة لدى الشّعراء، إذ وجدنا تقريبا جلّ النّصوص سواء في مقدّمتها أو في خاتمتها يُضَمِّنُهَا الشّاعر طلبا متمثّلا في الشّفاعة. إذ أنّ الكثير من **المدائح النّبويّة** الّتي عرفها التّراث العربيّ لا تخلو من توسّل ودعاء وطلب شفاعة، فالقصيدة النّبويّة أصبحت عبارة عن وصفة علاجيّة من أمراض معنويّة وروحيّة، وفي

بعض الأحيان جسديّة كبردة البوصيريّ، وفي هذا الطّريق سار المادحون راغبين في تحقيق حوائجهم الدّنيويّة وراجين من الله محو ذنوبهم في الآخرة؛ وإن كان ارتباط هذه الظّاهرة عند هؤلاء الشّعراء مقرونا كما ورد عند عبد الله ركيبيّ بظاهرة انحلال الأخلاق، وانتشار الفساد بين النّاس، ممّا يستوجب الرّجوع إلى الله عن طريق الدّعاء، هذا الأخير الّذي يتضمّن توسّلا بالنّبيّ وبأوليائه، فالقصائد الّتي قالها أصحابها في التّوسّل أوالدعاء ... تكثر بوجه خاصّ في الفترات الّتي يعمّ فيها الشّرّ وتتحلّل الأخلاق، وتنتشر الفوضى ويكثر الاضطهاد، فلا يجد الشّاعر سوى الرّجوع إلى الله للاستعانة به أوالتّوسّل برسوله وبأوليائه المخلصين.

فالتّوسّل كما عرّفه صاحب اللّسان من وسل فلان إلى الله وسيلة، إذا عمل عملا تقرّب به إلى الله، والواسل الرّاغب إلى الله ...وتوسّل إليه بوسيلة، إذا تقرّب إليه بعمل .... وفي حديث الأذان: اللّهم آت محمدا الوسيلة، هي في الأصل ما يُتوصّل به إلى الشّيء، ويُتقَرَّب به... وقيل هي الشّفاعة يوم القيامة، وقيل هي منزلة من منازل الجنّة. أمّا فيما يخصّ شرعيّته؛ فقد وردت مادّة الشّفاعة في القرآن في عدّة آيات بمعان مختلفة، والشّفاعة الواردة في القرآن الكريم تتعرّض كلّها إلى الجانب الاصطلاحيّ وهو رفع العقاب عن المذنبين إذ يقول جلّ ثناؤه: "**يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا**. "كما أقرّت نصوص الأحاديث النّبويّة أحقّيّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالشّفاعة؛ إذ قال: "**لكلّ نبيّ دعوة قد دعا بها فاستجيب؛ فجعلت دعوتي الشّفاعة لأمّتي يوم القيامة.** "كما أثبت جلّ العلماء من فقهاء ومفسّرين ثبوتيّته من خلال نصوص الآيات والأحاديث؛ إذ

يرى أبو حامد الغزاليّ أنّه إذا حقّ دخول النّار على طوائف من المؤمنين فإنّ الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصّديقين بل شفاعة العلماء والصّالحين، وكلّ من له عند الله جاه وحسن معاملة، فإنّ له شفاعة في أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه.

فالشّفاعة هي حقيقة نطقت بها النّصوص القرآنيّة، وتواترت في كتب السّنّة النّبويّة المطهّرة، وأثبتها العلماء في بحوثهم ودراساتهم بأنّها السّؤال في التّجاوز عن الذّنوب، لذا ألفينا الشّعراء الّذين اختصّوا بالمديح النّبويّ؛ يقفون في قصائدهم عند هذه الظّاهرة الّتي أصبحت تقليدا أوعنصرا أساسيّا من عناصر بناء قصيدة المديح؛ إذ أنّ وقوف الشّاعر عند محطّة التّوسّل، وطلب الشّفاعة في المولديّة، يكاد يتحوّل إلى تقليد ملزم في أشعار المديح النّبويّ، ففيه يُظْهِرُ الشّاعر قوّة العاطفة الدّينيّة، وقمّة النّقاء الرّوحيّ، وضعفه أمام خالقه وقلّة حيلته حيال صروف الزّمن؛ فيستغيث بالجانب النّبويّ، لذا سنحاول في هذه المداخلة أن نلامس نصوص الشّعر (الشّعبي، الملحون – العاميّ) لما لهذه المصطلحات من تضارب واختلاف؛ لنرى ما نصيب الشّعر الشّعبيّ من هذا الغرض الّذي اشتُهِرَ به كثير من الشّعراء المغاربة، إذ أوقفوا شعرهم على مدح الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم)، وهذا ما أدّى بهم بأن يجعلوا من مدحه (صلّى الله عليه وسلّم) "فنّا قائم الكيان، ناضج الصّور، مكتمل الخصائص؛ تناولوا فيه سيرة الرّسول(صلّى الله عليه وسلّم) لما فيها من صفات وشمائل ومعجزات."[1]

فالشّاعر الشّعبيّ الجزائريّ شاعر على صلة وثيقة بربّه ونبيّه، وهذا ما نلمسه في جلّ الدّواوين الشّعريّة الّتي كان لها حظّ من الجمع والتّدوين – لأنّ

هناك الكثير من التّراث الشّعريّ الشّعبيّ ما زال منسيا، وغائبا عنّا، أومغيّبا لأسباب– إذ "نجد أثر الدّين واضحا قويّا، وهي سمة بارزة في هذا الشّعر؛ فقد يبدأ الشّعر بالدّين وقد ينتهي به، بذكر الله أو يصلّي على الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم)، أويستنجد برجال الطّرق الصّوفيّة."[2]

وهذا الارتباط راجع إلى أنّ الشّاعر الجزائريّ؛ ينتمي إلى بيئة محافظة ومتمسّكة بعقيدتها، ممّا جعله يقدّسها. كما أنّ انتماء الكثير من الشّعراء للطّرق الصّوفيّة؛ جعلهم يتورّعون في محبة الله ورسوله. و**الشّاعر لخضر بن خلوف المغراويّ** – الّذي جمع له الأستاذ محمد بن الحاج المغربيّ واحداً وثلاثين قصيدة، وأصدرها في ديوان سنة 1958م بالرباط– شاعر متصوّف ترك لنا نصوصاً؛ تزخر بمدح خير البريّة. والّتي وجدنا فيها براعة وإتقانا لفنّ المديح، ومن النّصوص الّتي لقيت شهرةً واسعة وسط محبيه نصّ أحسن ما يقال عندي:

أحسن ما يقال عندي بســـم الله وبيك نبـــــدأ
حبك في سلطان جسدي ما عزك ياعين وحـــد
مثل النحل إللي تسدي تبني شهد فـــوق شهد
يا محـــــــمد يا سيدي صلي الله علـــيك لبدا

هذه المقدّمة الّتي نلمس فيها العاطفة الدّينيّة الصّادقة، والّتي حاول الشّاعر أنّ يعترف فيها من تمكّن حبّ الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) من سائر جسده؛ وطالباً في الوقت نفسه الشّفاعة يوم القيامة، وهذا من خلال لفظة النّحل والّتي شبّه فيها النّبيّ بالعسل الّذي يتداوى به النّاس من أمراضهم

وعللهم، فكذلك النّبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) هو بالنّسبة للشّاعر كالهادي والمنقذ والمداوي، وهذا ما هو موجود في أجزاء هذا النّصّ كقوله:

يا محمد ليك يفـــزع من لا لو في الناس والي
لا مانع غيرك يمنـــع من سطوت مول الموالي
لا شافع غيرك يشفــع منـــه عر بـــحالي
راغب في الدنيا لوحدي في نفسي شفيت الأعداء

هذا الطّلب للشّفاعة هو السّؤال الّذي نجده متكرّرا في جلّ القصائد الّتي تهيم بحبّ النّبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) عند لخضر بن خلوف، وحتّى عند بقيّة الشّعراء سواء الشّعبيّين أم الرّسميين وربّما هذا راجع إلى الشّعور بكثرة الذّنوب والتّقصير في حبّ الله ورسوله، وهو ما يجعل العبد يندم في آخر المطاف ممّا يستدعي منه الرّجاء وطلب الشّفاعة. وهذا ما لـــمّح إليه الشّاعر بقوله:

ما قدمت إلا ذنوبـــي هب لي يا مولاي توبة
باح السر وبان شيبي من قدامي صار عقبة
أستر يا ستار عيبي لا نضحى للناس عجبا

ويواصل الشّاعر في نصّ آخر تحديد فلسفة الإعجاز الّتي ينتظرها من لا وليّ له إلاّ رجاؤه، وأمله في محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) يوم القيامة، ومن ذا الّذي يستطيع أن يحقّق رجاء المسلم في هذا اليوم المهول يوم الحشر غير محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ؛ إذ يقول:

النـــور نشاهـــدوا ونراه بالأبصار يا ربي بجاهـــو دخيل
وأهل الصلاة والصيام والاستغفار في يوم الموقف الطويل

أجعلنا في كفالة النبي المخـــتار في يوم الموقف الطويل
في ذاك اليوم طولها خمسين ألاف لاسنة والشمس حامية تغلي فوق ريـــوس
تأتي العباد فارزين طواف طـــواف وجميع الناس واقفين كاملة محبوس
وتهيج النار كتفيض على لجـــراف والجنة في بوابهاج يفتح قيــطوس
محمد لأمته كفيل
يشفع فينا تقول طايـــف لكفار والنار تزيد في الشعيل
ووجوه المذنبين تذبال وتصفار في يوم الموقف الطويل
أجعلنا في كفالة النبي المخـــتار في يوم الموقف الطويل

إنّ هذه الأبيات تصوّر ذلك المشهد العظيم، أوكما سمّاه الشّاعر الموقف الطّويل الّذي من أجله يتوسّل ويطلب شفاعة نبيّه في أن يكون هذا اليوم بردا وسلاما عليه؛ إذ كلّ شاعر يخوض في المديح النّبويّ؛ يصرّح أويلمح بمقصده من إنشائه، وإن كان يدرك أنّ ما يأتي في مديحه النّبويّ لا يمكن بحال من الأحوال أن يبلغ ثناء الله على رسوله في كتابه العزيز، ولكن صدق النّية والأمل في الشّفاعة يدفع الشّاعر إلى ولوج هذا الباب (2).

وهذا ما نجد صداه في نصّ آخر يقول:

ياسعدي بالرسول شفيع الأمـــة راحل البراق صاحب الفضل والهمة
شفيع المذنبين في نهار العظمة يوم تكون الشمـــس تــــقد
يستعظم هولها بالوغى لغيـــات ولخـــلق مجنـــد تنـــــــاد
هذا اليوم ليك يابو لمعجـــزات يـــاسعدي بالرسول سعـــــدي
هذاك اليوم ليك يا سيد الثقلين أنت الموعود بالشفاعة يـــوم الدين
تشفع في ساير أمتك المسلمين ليك البراق كـــان مهـــــدي

ما ركبو حد غيرك أنتايا بثبات يا سيــد الخــلق يا الهـــــــادي

إنّ مديح لخضر بن خلوف هو مديح مختلف عن تلك المدائح، الّتي يمدح فيها المادح مناقب وخصال، كان الممدوح رمزا لها أومواقف جسّدها في حياة النّاس إذ (ليس محمّدا صلّى الله عليه سلّم في تصوّر لخضر بن خلوف هاديا، ومرشدا إلى طريق الخير والحقّ، وناشرا للفضيلة والأخلاق السّامية فحسب؛ وإنّما هو الملاذ ومفتاح الرّجاء يوم ينعدم الأمل والرّجاء في غيره.)

هكذا ومن خلال تعاملنا مع نصوص لخضر بن خلوف الّتي اهتمّت بجمعها جمعيّة **أزور** مستغانم [ملاحظة بعض النّقائص أثناء عمليّة التّدوين إذ الكتابة الشّعريّة لهذا النّوع من الشّعر مثل الكتابة العروضيّة.

وجدنا أنّ الشّاعر غارق في مدحه للرّسول (صلّى الله عليه وسلّم)؛ إذلم نعثر على شخصيّة أخرى، كان قد خصّها بالمدح كما فعل بعض الشّعراء الشّعبيّين حين مدحوا أشخاصا من الشّيوخ أوزاوية من الزّوايا؛ بل حافظ على شخصيّته كعالم وشاعر له رؤيته الدّينيّة الّتي ترفض التّبعيّة والولاء للأشخاص.

وفي الأخير فإنّ وقوف الشّاعر عند محطّة التّوسّل، وطلب الشّفاعة؛ يكاد يتحوّل إلي تقليد ملزم في أشعار المديح النّبويّ، ففيه يظهر الشّاعر قوّة العاطفة الدّينيّة، وقمّة النّقاء الرّوحيّ، وضعفه أمام خالقه وقلّة حيلته حيال صروف الزّمن؛ فيستغيث بالجانب النّبويّ وهذا النّوع من الاستغاثات المدوية؛ تظهر وتشيع في الظّروف الاقتصاديّة والاجتماعيّة السّيّئة وبسبب غربة الإنسان في مجتمعه، مثلما حدث في عصور الضّعف الإسلاميّ،

والخطر الصّليبيّ، وزمن تدهوّر عقائد النّاس، وفساد أخلاقهم واهتزاز القيم الإسلاميّة .

- الإحالات:

1- سيدي لخضر بن خلوف، حياته وقصائده، منشورات جمعيّة آفاق، مستغانم، دارالغرب للنّشر والتّوزيع.
2- أحمد موساويّ، المولوديّات في الأدب الجزائريّ القديم، موفم للنّشر، الجزائر، 2008م.
3- عبد الله الرّكيبيّ، الشّعر الدّينيّ الجزائريّ الحديث، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب.
4- التّليّ بن الشّيخ، دراسات في الأدب الشّعبيّ.
5- مجلة آمال، عدد خاصّ بالشّعر الشّعبيّ، العدد 58، تصدرها وزارة الاتّصال والثّقافة.
6- مجلّة الثّقافة، تصدرها وزارة الاتّصال والثّقافة.